# نساء الإثم والأسى

إلى ميرال وسحر

**محمد أبي سمرا**

لامرأة لبنانية اجتماعياً واختبرت العيش في بيروت، ولرجل خرج على صورة الرجولة في الثقافة العربية الاسلامية، تبدو الحياة لا تطاق في مدينة اربيل الكردستانية العراقية، وفي عدن وإب اليمنيتين، وفي القاهرة وطهران وعمان.

## سهرة بين المهملات

أستعير حساسية امرأة ورجل في هاتين الصفتين، لاقول كم محرج ومخجل ان يعلم امرؤ ان ما يسمى "كازينو المعلمين" القريب من صالة "ميديا" للعروض ومن فندق "شيراتون" في اربيل، لا يُسمَح بدخول النساء اليه، فرادى او جمعا او في صحبة رجال.

على باب "الكازينو" كان علينا نحن الرجال، ان نتوسط كـ"سياج" غرباء عن "الحمى"، لتسمح ادارته بدخول السيدتين، المصرية والفرنسية المتلبننة، اللتين كانتا في صحبتنا قبل ان ندخل "الكازينو" الكئيب باضوائه النيون الملونة المنبعثة حمراء وصفراء وزرقاء وبرتقالية من مصابيح الفلوريسون المعلقة في جنبات "الحديقة" باغصان شجرات هرمة متباعدة. موحلة كانت ارض الحديقة المعشبة، والطاولات والكراسي هزيلة دبقة في الهواء الليلي الطلق. ولئلا يخرج حضور السيدتين رجولة رواد "الكازينو" عن طورها المعتاد، جرى عزلنا على مصطبة خلفية، حيث رُميت اشياء وقطع اثاث خربة اهملت من سنين.

في آخر السهرة الكئيبة كان علينا ان ندفع 120 دولارا اميركيا لقاء عدد من عبوات البيرة و"مازة" من اللبن والحمص المسلوق والفول الاخضر المسلوق بقشوره والفستق الحلبي الرديء.

## السياحة الجنسية

يذكّر "كازينو المعلمين" في اربيل بكازينو على شاطئ مدينة عدن اليمنية الجنوبية، حيث رأيت بائعات هوى "منقبات ينتظرن ان يبعن الهوى من زبائن الكازينو، اي السياح القادمين، غالبا، من ديار مملكة خادم الحرمين الشريفين. من تحت النقب السود كانت النسوة المنتظرات يشربن الخمرة من كؤوسهن، بينما سيقانهن سافرة حتى ركبهن التي رفعن اليها عباءاتهن السوداء.

في غرفة في فندق "تاج إب السياحي" في مدينة إب الداخلية وسط اليمن، شاهدت مصادفة على شاشة تلفزيون "العربية" تحقيقا عن الزواج السياحي في اليمن. "أبطال" هذا النوع من الزواج رجال السياحة الجنسية السعوديون وفتيات يمنيات منقبات من عائلات إب. يدفع السائح السعودي مهر الفتاة اليمنية لاهلها، وفي امسية

النهار نفسه يُقام حفل الزفاف في صالة اعراس الفندق السياحي، على التلة الجميلة المقابلة للمدينة الكئيبة الخامدة التي تُركت بيوتها كلها بلا طلاء، والمتراصة في تدرجها الرمادي المقبّض على المنحدر الجبلي المنبسط حتى اسافل واد منفرج، تسيل فيه مياه مبتذلة.

في الليلة نفسها، بعد حفل الزفاف، يدخل عريس السياحة السعودية على الفتاة اليمنية، وفي الفتاة اليمنية، فيعمر جناح الاعراس في فندق تاج إب للسياحة الجنسية. وهي السياحة التي قال التحقيق التلفزيوني إن لياليها تخلّف اجنة في ارحام الفتيات الصغيرات، والقاصرات غالبا، اولئك اللواتي، للقدر اليمني الاسود مع اطفالهن، يتركهن السائح السعودي. يتركهن في ديارهن الكئيبة، ليعود الى دياره واهله، ديار الاسلام الحنيف القويم واهله. الاسلام الذي لا حضور فيه للاطفال والطفولة، الا كرجال بلا امومة وايتام الآباء والابوة العارية الا من الرجولة القبلية التي جعلت المرأة رحما لانجاب الرجال، او سلعة للسياحة الجنسية.

حين رأيت على شاشة التلفزيون صور الفندق والغرفة التي انزل فيها، وايقنت انها هي نفسها جناح الاعراس في فندقنا، انتابتني نوبة من القرف والغثيان حيال السرير والاغطية والشراشف والوسائد، فيما كان بصري يكتئب لمشهد المدينة الشحيحة الاضواء قبالتي، المبكرة في نومها المسائي الكئيب، كقرية نائية.

**عشاق الحرام**

الكآبة المقبّضة اياها انتابتني حين ابصرت مشهد "عشاق" مصريين يرتعدون خوفا، بعد هروبهم من المدينة الى الشرفة الشاهقة في اعالي برج القاهرة. على الشرفة هذه يلتقي "عشاق" الحرام – كنا سنقول الخطيئة، لكن لا وجود للخطيئة في الاسلام – ليقفوا رجلا وامرأة، فتاة وشابا، فيتبادل كل زوج منهم... ماذا سوى اللوعة والاسى والاحزان وجور القدر والجوى والصد، والتقلب على جمر النار؟... الى آخر ما في كلمات اغاني كوكب شرقنا الكئيب من "هوى دون اهله". وهذا عنوان كتاب لحازم صاغية عن كوكب الشرق.

**شرف الثورة**

في شمال طهران، على مدخل فندق "ازادي" الفخم الذي نزلنا فيه قبل سنوات، كان يقف دائما عنصر من "حرس الثورة" الخمينية، مهمته مراقبة الخارجين والداخلين، وحفظ شرف رجال الثورة المعلق في اعناق النساء.

استقبلنا صباحا على مدخل الفندق المرأة والرجل الايرانيين اللذين استضافانا في الليلة الفائتة على عشاء مع اصدقائهما في منزلهما الزوجي. وحين همَّ الزوج بالمغادرة الى عمله، تاركاً أمام الفندق زوجته لتصطحبنا في جولة في بازار طهران، مسرعا هجم عنصر "حرس الثورة" امام الفندق نحو الزوج وطلب منه ابراز بطاقة هويته الشخصية.

رجل شرف الثورة الاسلامية، اوقف صديقنا الايراني، بعدما اخذ منه البطاقة، وراح، من جهازه الخاص، يكلم مكتب الحرس، ليخبره انه عثر على فريسة لطخت شرف الثورة: رجل اصطحب زوجته في سيارته، وانزلها على مدخل فندق "ازادي" ليسلمها كبائعة هوى، لغرباء اتوا طهران مدعوين للمشاركة في احتفالات ذكرى امام الثورة

الخمينية ومرشدها الاول.

فيما كانت المرأة الايرانية ترتعد رعبا وخجلا، كنا نحن الغرباء نرتعد خجلا وغضبا صامتين، كأننا رجال في مشهد سينمائي من فيلم غربي عن الغستابو الذين يقتادون زوجين من اليهود في برلين او باريس او براغ ايام الحرب العالمية الثانية.

ولاننا غرباء استطعنا ان ننهي المشهد بسلام، بعدما استدعينا مستشار الرئيس محمد خاتمي الى مدخل الفندق، وقلنا له اننا سوف نروي الحادثة في الصحف اللبنانية، في حال تعرض الرجل وزوجته لمكروه، بعد مغادرتنا طهران.

**رقص كربلائي**

نعود الى اربيل عاصمة كردستان العراقية، حيث حملنا الضجر والخواء الليليين وصعدنا الى "علبة ليل" في الطبقة العليا من فندق "شيراتون". في الأضواء الليلة الملونة المتراقصة في الصالة، كان رجال بشوارب كثيفة يصطفون جلوسا على كراسي خلف الطاولات، وامامهم على البيست راقصة سمينة عارية الكتفين واعلى الصدر، ترقّص نصف جسمها العلوي، بينما نصف جسمها الاسفل ثابت في تنورة طويلة سوداء. الموسيقى الآلية صاخبة تملأ قوتها الصالة الواسعة. لون الاثاث كلها نبيذي داكن، والهواء يداخله شيء من دكنة الالوان، فيما فحيح شهوة الذكورة الطالع من اجسام الرجال، والمركز على لحم الراقصة العاري وشعرها، يلطخ فضاء الصالة، ويفيض عن سعتها، فيشعر الداخل اليها انه يخوض في مستنقع من الدبق الكثيف.

انه مستنقع مركزه جسم الراقصة، بل الاهتزازات العنيفة السريعة لرأسها في الاتجاهات كلها، فيما شعرها المنفوش المتطاير متألما كعليقة تحترق فوق جسمها السمين الثابت، يوحي بدور منفرد في حلقة ذكر كربلائية في علبة ليل فجائعية في الطبقة الاخيرة من فندق فخم غُرس، هكذا، في مدينة تغرق خامدة في عزلتها الداخلية الكئيبة.

**كلام الأولين**

في عمان التي امضينا فيها نهارا وليلة في الطريق الى كردستان العراقية، كنا قد ركبنا باصا يشبه علبة الليل في فندق "شيراتون" اربيل. دكنة لون المقاعد والستائر الكحلية السميكة المسدلة خلف النوافذ في الباص، تعزل داخله عزلا تاما عن الخارج وعن مشاهد الشوارع النهارية في المدينة. الركاب القليلون رجال كلهم، ويتحادثون فيما بينهم عن الدنيا والآخرة وحساب القبر المفضي الى الجنة او النار، وعن فرائض الدين على البشر في دار الفناء.

ليس من الضروري ان تجمع بين الرجال المتحادثين معرفة ما، خاصة وسابقة على ركوبهم الباص الذي يعزلهم في جوفه، كأنه غرفة جلوس خاصة، او مقيل، في بيت خارج الزمن العام. فالكلام الذي يتبادلونه ليس كلامهم الخاص، بل انه الكلام العام الذي لا كلام قبله ولا بعده ولا خارجه.

كلام هو كلام الله واللسان واللغو والعقل والامة، حيث يصنع الكلام الاول، كلام الاولين، العالم وحياة البشر مرة واحدة والى الابد، ويتركهم بلا لغة ولا حياة الا "ما كتب الله لهم" على هذه البسيطة وفي جنة الخلد أوفي "نار جهنم وبئس المصير".

**اغتصاب** ٩٥

وحده الهذيان اخرج كلام رجل من رجال الباص من زمن ما قبل اللغة وما بعدها. روى الرجل المحطم الاسنان كمتشرد، حادثة خيّل الينا انها من حكايات القصص الشعبي، فقال ان شيخ دين شاب طلب من ولده الصغير – بين 12 و13 سنة – بعد خروجه من بوابة مدرسته، ان يشتري له الخبز من دكان قريب. اشترى الصبي الخبز وعاد به الى الشيخ الشاب الذي راح يتقرب منه ويلاطفه ويغويه بكلامه عن حسن وجهه وجماله، ثم وضع يده على مؤخرته، فدفع الخوف الصبي الى محاولة الهروب، لكن الشيخ انقض عليه، وراح يقبله في عنف وسط الطريق.

انشب الصبي اظافره في وجه الشيخ الذي، بقوة ألم الخدوش في وجهه، استل من تحت عباءته الدينية خنجرا، وراح يطعن به جسم الفتى طعنات عنيفة متتالية، حتى تركه جثة هامدة في الطريق، ثم ولى هاربا.

كان الرجل والد الصبي قد استعاذ بالله من الشيطان الرجيم، حين دخل الى الباص ورمى جسمه المتعتع، كما من سكر، على المقعد بيننا، راميا يده على فخذ احدنا. كان تعوذه من الشيطان "الخنّاس الذي يوسوس في صدور الناس"، في مثابة اعتذار عن تركه يده ترتمي على فخذ الرجل الذي يجلس قربه. وهو اعتذار تكفيري عن الفاحشة التي ارتكبتها يده ونفسه "الامارة بالسوء". انه السوء اياه الذي ارتكبته نفس الشيخ الشاب، وكفّر عنه بقتله الصبي ابن رجل الباص الذي، فورا بعد ارتكابه "الفاحشة الجنسية" واعتذاره التكفيري عنها، بدأ برواية حادثة مقتل ابنه.

قوة الحادثة، وروايتها على نحو هذياني اقرب الى حكايات القصص الشعبي، اوقعتاها في منطقة من الوعي والتخييل. خارج منطق تصديق وقوعها او اعتبارها من نسيج خيال الرجل الذي ظهر لنا في هيأة متشرد سكير.

وتحدث الرجل عن ثورة عشيرته وطلبها الثأر من عشيرة الشيخ الشاب القاتل الذي قُبض عليه وجرت محاكمته امام قاض حاول ايجاد اسباب تخفيفية لشيخه، بان حمل جريمته، على حق الدفاع عن النفس، على غرار حمل جرائم الشرف على "فريضة" غسل العار الذي يلوث شرف الرجال المعلق بأعناق النساء.

وهذى الرجل انه استأنف الحكم القضائي، وزار الديوان الملكي طالبا استباحة دم الشيخ، حقناً لدماء مسلسل الثأر بين العشيرتين النازلتين في مدينة عمان التي، في رحلة بباص عمومي في شوارعها، لم نسمع سوى هذيان عن الآخرة والجنة والنار ويوم الدين والنشور، وحكاية عن رجل دين شاب وسوس له شيطان شهوته التي ادمت وجهه، ولم ينلها الا بخنجر استله من تحت عباءته الدينية، وغرسه في قلب صبي حسن الوجه أمرد، قبل ان ينطلق هاربا في شوارع المدينة.

حين نزلنا من الباص، ومشينا نحو الفندق، كانت شوارع عمان، بل عمان كلها، خاوية ذاك الخواء الكئيب

المضجر الذي كان ينتظرنا في اربيل.

**بيرة الانتقام**

من فندق في طهران، الى برج القاهرة، الى "كازينو" عدن وفندق إب في اليمن، الى فندق شيراتون و"كازينو المعلمين" في اربيل، الى باص عمان المسدل الستائر كما في علبة ليل... كم يبدو العالم متشابها في مشاهده وحكاياته، وكم تبدو بيروت بعيدة بعيدة، كأنها على طرف هذا العالم؟!

أخيرا لا بد من الاعتذار من سحر وميرال، رفيقتي رحلتنا في اربيل، واللتين ودعناهما في مطار عمان، بعدما شربنا نحو ذزينة من زجاجات البيرة انتقاما من المدن الكئيبة المضجرة.